السوبرمان

او « الانسان الكامل »

« السوبرمان » أو « الانسان الكامل » هو تلك الصورة البراقة الرائقة من « الانسانية » الناضجة المستكملة الجوانب التي لا تعتور أسوارَ متانتها ثغرات من الوهن أو فتحات من المثالب

بل هو « الحلم النهبي » الذي يداعب آمال « البشرية المعاصرة » ، ويتبدى لخواطرها كما تتبدى الغادة الهيفاء أمام عيون العاشقين فتنة متحركة تستهوي الالباب بسحر جمالها الخلاب

بل هو غاية المطاف من المعارج ترقاها البشرية على متدرجة التطور نحو المثل الاعلى الذي تطمح اليه ، وتوجه جهودها المتواصلة النشيطة نحو بلوغه : ليتمثل في يدها عصا سحرية تبدل آلامها المضنية حالة راضية مرضية من السعادة والرفاهية

بل هو ذلك الندى المبارك الذي تشرئب اليه زهرات الانسانية تستزله في شوق ولهفة : لتتفتح اكمامها عن شذاها العطري المتأرج الذي يروّح عن النفوس بعد أن استبدّت بأنفاسها تلك الرائحة الخانقة التي نشرها روح النضال بين « أفراد النوع » : مدفوعين بعوامل الانانية والاثرة ، التي تحبب الاستعلاء والسيطرة ، جرياً وراء مطامع أثيمة من التسخير والاستغلال

بل هو تلك المرحلة النهائية التي تبلغها البشرية في تطوّرها : بعد أن تعبر جسراً من المتاعب وتخوض بحراً من المصاعب المجهولة . . . فإذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تلعب الانسانية أمجد أدوارها على مسرح الحياة ، بل تقوم بأشرف واجباتها نحو مختلف مظاهرها أفراداً وجماعات ، ونحو باريء الاكوان الذي استخلفها في الارض

خصائص السوبرمان

ولعمري لم يستطع الانسان أن ينهض بأعباء تكاليفه الجديدة الا وهو مزوّد بأسلحة اخرى من كيانه المتجدد : الذي سيتكيف أنموذجه وفق قالب من تفاعيل التطور والارتقاء ، وسيتكشف هذا التطور في الشخصية الانسانية عن تقوية مقوماتها المادية والعقلية والادبية والوجدانية ، كما سيكفل تحقيق التوازن بينها ، وتنظيم روابطها ، بحيث تتساند وتتعاون ، وينتفي عند بعضها الاستعداد للطغيان على حساب البعض الآخر

ولكن ، على أية صورة سيتسق هذا الطراز المرموق للانسان الكامل ؟ والى أي مدى سيتسع مجال النشاط أمام مقومات شخصيته ؟ سننتظر من السوبرمان أن يكون ذا جسم

صحيح قوي متين ، سليم التكوين ، يتمتع بمرونة الاجهزة والاعضاء ، وحرية نشاطها في الاداء

وسننتظر من السوبرمان مواهب عقلية فذة : كريمة الجوهر ، رائعة الاثر ، بمقدار ما متحرر من شوائب القصور عن التعمق في الادراك ، والعجز عن استكناه الحقائق وطبائع الاشياء . . . . وذلك بفضل ما سيتسع امامها من آفاق جديدة لدقة النظرة وسلامة الارتياء : نظرة شاملة كاملة مستوعبة تستعين بالاخيلة الابداعية والحافظة الواعية والارادة الحديدية على فتح المجاهيل المغلقة امام الذهن ، ليرتادها منقباً عن النواميس المكنونة ، فيضم كل حلقة الى سلسلتها ، ويرد كل فرع الى اصله ، ويرجع كل فرد الى نوعه ، ثم يستخدم الجميع وما يستجد من كل جوهر فرد ، في كشف عوالم فكرية اخرى : يسخرها بدورها مع غيرها في تحقيق اغراضه ومطامحه وما تصبوا اليه الجماعة الانسانية كافة من سعادة ورخاء وطمأنينة وسلام

وسنطمع من « الحاسة الفنية » في « السوبرمان » بأزهى ما يفيضه طيفها من باهر الالوان : وأشجى ما تترنم به بلابلها من فاتن الانغام في ساحر الالحان : لتأتلف من تلك الالوان وهذه الالحان صورة مناجية : وأنشودة داعية : نحو الكمال في أروع مثال : تحت قبة التآخي والوحدة الوارفة الظلال

وسيتجلى السوبرمان في صفاء « روحانيته » : بعد أن يتخلص تيارها من رواسب القنق والحيرة ، وبعد أن ينجلي عن رؤاها صدأ الغرائز ونوازع الاثرة ، وبعد ان يسجح ما ترسف فيه من أغلال المادية المركوزة المستقرة ، وبعد أن ينجاب ما يظلها من غيم الفردية المنقبضة المتحجرة : فاذا هي روحانية نقية طاهرة ، مجلوة متحررة طليقة طائرة : تسبح في جو جديد فسيح تعطره نسمات الحنين الى التسامح ، ويحقق فيه الضمير الانساني بهمسات هاتفة تمجد الاخاء والمساواة وتغري بالاندماج بل التلاشي طي تلافيف الروح الاعظم الذي ينتظم العالم والاكوان جميعاً

نظرية السوبرمان في الميزان

ولقد طالما كانت هذه الصورة الاخاذة التي اسلفنا عرضها عن السوبرمان موضع تشكك طائفة من الباحثين ، ويأس من امكان تحقق نظريتها التي تسمو في تقديرهم عن مستوى المعقول . فراحوا يرصدون عليها اشتاتاً متنافرة من جدل سقيم لا ينهض ، وتفنيد عقيم لا يدحض

(١) ذلك انهم زعموا ان « عقل » السوبرمان الهائل الجبار سيستغرق مقداراً كبيراً من قوة الانسان . فيضعف جسمه ، وهو الاساس في التغذية والاصل في التكوين — لكن ذلك تعسف منهم في تأويل قانون الطبيعة في « المنح والاستعاضة » ، وقياس مع الفارق البعيد على ما نشاهده من حال بعض النوابغ الذين يضطرب ميزان كيانهم . فترجح كفة عبقريتهم نظيرتها الجسدية . والعلة في خطإ هذا الدليل كامنة في اختلاف اساس القياس . اذ ان السوبرمان لن يتطور بأحد شطريه متخلفاً بالآخر عن النهوض واللاحقة في نفس الميدان ، بل سيستفيض

من جسمه جسداً آخر مختلف الخصائص والوظائف كما سبق البيان وسيكون هذا الكيان المادي كفيلاً بحمل ما قُدِّر ان يستقر في عُمْقه من قبة العبقرية الذهنية المشخصة

وسيتعهد هذا الكيان الجسدي عوامل مختلفة من نواحي التربية والفسيولوجيا وغيرها. بيد ان العلم لم يعالجه العلم من بذل الجهد والتجارب في هذا السبيل . بل اننا نلمح من الآن نواة هذا التطور المنتظر : — فأمامنا نظم التربية في دول كثيرة كألمانيا وايطاليا وتركيا تتجه بوجه خاص نحو الاعداد الرياضي لتقوية الابدان وتنميتها وتمريسها بالقيام بوظائفها على اكمل اسلوب يفي بالغرض المرتقب . وأمامنا كذلك تلك العناية التي ينبع وراءها البحث الحثيث لتحسين النسل وتهذيب النوع حتى نظفر بنماذج سليمة قوية لا تشوّهها العلل ولا يمسخها النقص في التركيب

وأمامنا امل فسيح الرحاب في ان يكشف العلم الحديث ما غمض في الجسم من نواحيه الفسيولوجية ، كما كشف اخيراً عن « الغدد الصماء » ذات الاثر الحيوي في نشاط وظائف الاعضاء

ولا يزال في مضمار البحث متسع بعيد المطارح مترامي الآفاق . ولن تزال الهمة مبذولة لاستجلاء ما في هيكلنا الجسدي من استعدادات وخصائص كامنة : هي اما مجهولة الاثر واما راكدة يعوزها التطور لتنضج وتتجاوب مع نشاط واحد او آخر من الاجهزة العاملة . وما يدرينا ان يهتدي علم «الكيمياء العضوية» الى سر ما انغلق حتى الآن من خصائص المناعة وغيرها مما تتطلبه سلامة الجسم من المرض او دقة مكافحته على اهون سبيل وأسرع اجراء؟ ثم ما يدرينا ما تنقلب اليه البحوث الطبية من استغلال ما في كياننا الجثماني من ذخائر الكهربائية والمغناطيسية في سبيل فتح بديع جديد يأتي بالطوارق والمعجزات في علم الطب وطرق العلاج والنهوض «بحيويتنا» نهوضاً وثباً قد لا يأتي تصورنا على الغاية من اثره وخطره!

(٢) وحسبنا هذا القدر تأييداً لنظرية السوبرمان من الوجهة الجسدية . ولنعمد اذن لتناول ما يسوقه المعترضون من اوجه اخرى . فهم يزعمون ان مسألة التطور ان هي الا فرضية بحتة هيهات ان تتحقق . وهم يدللون على هذا الزعم بتخريجاتهم الطريفة لفلسفة « كانت » عن « الزمن » . فما دام « كانت » قد اثبت ان الزمن ليس له وجود مستقل او حقيقة ذاتية، فليسقط اذن في تقديرهم كل اعتبار يمكن ان يقوم لنظرية « التطور » . لان التطور يستلزم جسراً من « الزمن » [illegible] على غير اساس صحيح ، وايراداً على غير قياس صريح . ذلك ان فلسفة « كانت » ذات كيان «مطلق» لا يمكن ان ينضب في قالب ما نحن بسبيله من «النسبيات» . اذ القاعدة لدينا موجودة بخضع لحكمها « انسان العصر » و « السوبرمان » على حد سواء . لانهما يساهمان بنصيب متعادل فيما اصطلحت عليه « البشرية » من « اقية زمنية » هي وليدة ادمغتها وصنيعة ما جرى عليه تفاهمها وعرفها ، بل ميراث اجيالها وأطوارها على ظهر الارض ما بقيت

الارض تحصرها مظاهر الانسانية في مختلف عصورها وشتى صورها. وسيظل «التماس الذهني» بأقيسة الزمن مستمراً قائماً ما قام «الانسان» على ظهر الارض «حياً» : لان الزمن «كائن تصوري» تمخض عنه «الفكر» تحت تأثير «ظرف مكاني» معين هو الموضع الذي تحتله الكرة الارضية في الكون كوحدة من المجموعة الشمسية

(٣) هذا ولقد أثار المتشائمون غبار اعتراض آخر في وجه نظرية السوبرمان. فلم يفلحوا في غير استثارة كوامن الدهشة لهم والاشفاق عليهم ، رغم ما حاولوا أن يستروا ضعف حجتهم بطلاء خجول من رأي الفيلسوف «شوبنهور» أقحموه على غير مناسبته وفي غير موضعه: فهم يرددون معه أن «العقل لم يخرج من أيدي الطبيعة ليعلم حقائق الاشياء ، بل ليرينا كيف نحصل على القوت ... هذه الوظيفة الحقيرة !!» .... لكن أنا الزعيم لهم أن «شوبنهور» لم يقصد الى ما لالفاظه هذه من دلالة سطحية .. وإنما ترجى أن يستنفر بأسلوبه الساخر هم الباحثين وغيرهم من «العقلاء» التأمل الدقيق المتغلغل الذي ينفذ وراء «القشور» الى أعماق «اللب» حتى يكون «العقل الانساني» قد أدى بذلك غايته العليا ولم يعطل أداء مدخلق لتحقيقه والاضطلاع بأعبائه من أنبل المهام وأشرف المرامي

أما ان العقل أداة رخيصة كما يريدون أن يهبطوا بقدرها ، فذلك ما تتميز به بالانسانية الكاملة التي تتنزه بطبيعتها عن الاسفاف الى هذا الدرك السحيق ، وحاشاها أن تستوي «بعقليتها» مع سائر المخلوقات بل الحشرات الدنيا التي تلهمها «الغريزة» وحدها سبل الحصول على القوت .... تلك الوظيفة الحقيرة !! .... بلى ! فهذه طبائع الواقع ومنطق الحقائق وخصائص التكوين تتحداهم أن يطلقوا على صروح سلطانها وعول سفسطتهم ذوات القرون الزجاجية الهشة المتهشمة ؟ .. ولسنا بجامدين عند هذا الحد السلبي من المحاجة والمقارعة وان كان فيها كل دليل مقنع : يسمو على أي تطلع : ويدق دونه كل مطمح .... فهاهي باحة « الايجابيات » مفتحة الأبواب فسيحة الرحاب ، فليلجوها يروا من آثار العقل الانساني العجب العجاب الذي يبهر الألباب ؛ وليتفقدوا اذن كل ما أبدعه الفكر في نواحي نشاطه المتعددة من علوم وفنون وفلسفة وآداب .. وليتمثلوا كل أولئك ليعلموا بعد ذلك أن مثل هذا الانتاج الفياض يزخر بكرامة مستمرة وجوهر مصدره عن أن يحبس كل ذاته على خدمة المآرب الحيوانية الصغرى ، واشباع الحاجة الطبيعية الى الغذاء ، فالانسانية تأبى بشرف مقاصدها ونبل جهودها ، كما تربأ بها حكمة وجودها ، عن أن تعيش وتحيا وتموت ، لغير وجه البطون وجم القوت ! !

وبعد : فما العقل في صميم غايته الا أداة تتأمل الحقائق الماثلة والصعود على أجنحتها الى عالم الاسرار القصية المجهولة : حتى اذا ما كشفها ثم عرفها ، وضعها تحت تصرفه من وجهتين:

فأما الاول فهي استغلال النواميس الكونية لمصلحة الانسانية وفق حاجاتها المادية والوجدانية وأما الثانية فهي تنظيم أشتات هذه النواميس المتفرقة : بحيث يؤلف من حياتها عقداً : ومن أشلائها جسداً : ومن اجزائها واحداً فرداً ... فتتمثل له دقائق الوجود وحقائق العالم كما تمثلها جميعاً قوانين الطبيعة الخالدة التي شرعتها روح الوحدة الأزلية بحكمة أسرارها السرمدية ... وهو بعد مكتف بأعجاز الأثر ، عن الظفر بما يعز من امتكناه الجوهر ، وواجد عزاء الاقتناع وسلوى الاطمئنان في بعض ما هداه اليه بحثه . كالكهرباء التي ولد قواها وانتفع بمظاهرها : وان ابهظت كاهل ادراكه اعباء أسرارها ...

عندئذ تتجرد من خلال هذه التأملات مشكلة وجدانية تغمر جنبات اليقين بأشعة ضوئها : وتهتك حجب الحيرة امام الروح فتطمئن الى بارئها . بل ترقى الى فيض الانوار العلوية : تتزيد مما يتجلى عليها ، وتتزود بما يلهمها سبل الرشاد والتوفيق في حسن القيام بواجباتها نحو خالقها وما ابدع في الاكوان !

(٤) الى هنا وتنتهي المعركة بيننا وبين المعارضين لنظرية السوبرمان

فلننظر نحن في آخر حلقة من النظرية : لتكمل السلسلة وتنتهي المناجلة . ولنتساءل إذن : الى أي مدى يصل التطور بالقوة الأدبية لدى السوبرمان ؟؟ لاشك أنها ستنتعش وتنمو وتزدهر وتؤتي أكلها ثمراً جنياً شهياً ! ولسنا نسوق القول على عواهنه ، دون تدبر لمعنى ظواهره وبواطنه . بل أن الشواهد على صحته لتنطق بأجلى بيان وأنصع برهان . وها هي الانسانية فلنستعرض اطوارها وعبر سيرها : لنرى كيف انتقلت من حمأة الذلة والسخرة والعبودية : الى مكانتها العزيزة في بحبوحة الحرية والاعتداد بالكرامة الفردية ، ولنرى كذلك كيف تجاوبنا «الروح الادبية» في الانسان مع ما أحاطها من ظروف وملابسات : تفاعلت معها وتحدتها مادة لغذائها ، وصقلا جوهرها في بوتقتها ... أجل ! فلقد موتنها العلوم بذخائر المعرفة فتدرجت بسلاح التفهم لحقائق الكون والتقدير لقدائها . ثم أثارت لها الفلسفة السبيل الى تحديد الروابط وتصحيح الاوضاع وتنظيم العلائق : فعرفت لنفسها شرف قدرها في الوجود واستأنست لكرامة مرتقاها في الحياة .... ثم أهاب بها هاتف الوجدان اليقظ المتنبه : [illegible] تحت تربة التقاليد البائدة : متطلعة الى مزاولة مهمتها في حياة جديدة : تقتسم فيها عبء «تقرير حقوق الانسان» وتستدفيء فيها بأشعة حارة منعشة من شمس الحرية والديمقراطية . . وشتان إذن بين راهنها الحاضر ، ومستقبلها الزاهر المنتظر على أوج الغاية من التطور : وبين ماضيها الكئيب المنحط : حين كانت في عهود الاقطاع : من سقط المتاع !!

السوبرمان على مجاهيل الزمن

والآن لمحة سريعة متعمقة متأنية : نجوس خلال حقب الزمان : لنرى هل تضامت دفت خاليه وجانبه على غير حفنة قليل او كثير من أمثلة السوبرمان : جادت بها الطبيعة في صورة من الصور ؟ ولنرى هل بذلت الطبيعة هذه النماذج في سخاء المسرف المبذر : ام في شح البخيل المقتر ؟؟ .... أما في عصرنا هذا فان الانسانية لم تحرم من مظاهر امثلتها العليا . لكن أغلب الظن أنها امثلة متحيفة الاطراف : وان سمت خصائصها فرق مترامي الاطراف اوهاكم الناحية العلمية شاهقة بادهة في شخص «اديسون» و«ماركوني» و«ايفشتين» وغيرهم .. كما يتمثل الجانبان الفني والجسدي في شخص « تاغور » .. ولعل « فاندي » أروع مثال للشخصية العامرة : بقوتها الادبية الجياشة الواخرة : وجلال روحانيتها الساحرة المسيطرة : تلك الروحانية المتشحة بظلال الزهد والتصوف والغيرية : التي تستمد الرفد من بعض مناحي القداسة ونبل السمو في شخصيات النبوة ... والانبياء أبدع مثال للانسانية الكاملة التي حبتها العناية بنفحاتها السامية ... فلا غرو ان استووا امام الانسانية صراطاً مستقيماً للحق النير : ولا غرو ان انسكبوا على رأس الانسانية تاجاً من الكمال يتلألأ ويتوهج ! !

على ان العصور القديمة والمتوسطة قد استخلصت هي الاخرى من ربقة الطبيعة فلتات فذة من الابطال الذين امتازت بعض مقومات شخصياتهم بنحو جبار . سواء أكان ذلك من الوجهة الفنية « كرفائيل » ، او الجسدية كشجعان اسبرطة ، او الخلقية « كجان دارك » ، او العلمية كبناة الاهرام ، او الفلسفية كأفلاطون وسقراط والغزالي وابن خلدون . فالى مثل مواهبهم الطامية الطاغية يرجع الفضل في ازدهار الحضارة التي تفيأت الانسانية وارف ظلالها. وارتشفت من فرات مناهلها

والآن بعد هذه اللمحة على محيط الزمن ، في جزائر حاضره وساحل ماضيه النائي . لنرجع البصر كرتين ونطلقه مرة اخرى الى شاطىء المستقبل البعيد المترامي . ثم لنهتك حجب الغيب وسجف المجهول بأشعة تصورنا . لنتبدى لنا ما ستثمره تفاعيل التطور في الشخصية البشرية والظواهر الطبيعية والحقائق الكونية : من « عالم سوبرماني » تسير فيه أجيال متتابعة من الانسانية الكاملة في أتم تكوينها وأبهج مثلها العليا

ترى أي نظام سيملك الروابط بين الافراد والمجاميع ؟ واي مبادىء ستسود قواعد الحياة في الاصول والتقاريع ؟ ... لا مراء في ان الجواب على هذا السؤال الدقيق تستهدفه المجازفة بين حافتين خانقتين من الرجم بالغيب : وغياهب الغموض والريب . . لكن هذا الجواب مع ذلك هو النتيجة المنطقية لما اسلفنا من مقدمات التصور لشخصية السوبرمان ، وما تندعم عليه من خصائص تستتبع تقييد الكيان الاجتماعي على اسس صريحة وطيدة من التعاون البريء الصحي

السيال وفق ما ترسمهُ مبادىء الاشتراكية في أبسط نمط من التطبيق فستودعهُ الآن ذمة الخيال على ان الواقع المحسوس ينهض الاطمئنان الى تحقيق هذا الخيال : وان بدا ضرباً من المحال وها هي أدلتنا لا تزال تدوي فيها بين الحين والحين صيحات مستصرخة من حنا وهناك: تنشد التعاون بين الامم والتضامن بين الشعوب : نهوضاً بالانسانية من كبوتها : واقالة للمدنية من عثرتها — وانا اعترف بما تنطوي عليه هذه الدعوة من جلال : وما لها من أثر قوي فعال . . ولكن في الوقت نفسه اعترف كذلك بما تنطوي عليه هذه المناشدة من دوافع منتكسة وغاية منعكسة . . فالسير « بريان » — مثلاً — كان يعرض في سبيل السلام مشروعه الخاص بالتعاون الاقتصادي بين جماعة الدول الاوربية لكنهُ لم يكن يبذل جهده — عن عمد او عن غير قصد — لوجه السلام حبًّا في السلام ! لان هذا النظام الجمركي من شأنهِ ان يوقع الاضطراب في ميزان المبادلات التجارية الدولية كما تقتضيها طبيعة الاقتصاديات في العصر الحاضر ومن ثمَّ يتولد شرر الحقد والبغضاء : فتلتهب النفوس بروح المنافسة الموجاء : وتتقاطر زمراً الى ميادين الحرب الشعواء !

واخيراً لنستمع قليلاً الى « ولز » وهو ينشر في العالم رسالته ويبشر بالدعوة الى التعاون: منفراً من الحرب في نذر هلوع : وتحذير جزوع . . افلا نلفيهِ يستوحي الخوف والاشفاق من اهوال الحرب وغوائلها وفق ما يحصر جهده في دائرة التصوير لما ستكون عليهِ معداتها من فتك ذريع يعفي على كل أثر : فلا يبقي ولا يذر ؟ ؟ هلاَّ معناه يتناجى في دعوته بمعاني حب السلام المجرد كما تلهمهُ روح الحق والاخاء والمساواة ؟؟ كلاَّ ثم كلاَّ !! ولماذا ؟؟ ذلك لان الانسانية لم ينضج بعد استعدادها لقبول هذه المعاني واستساغة مبادئها . . وهيهات لهذه المبادىء السامية ان تثمر الاَّ اذا صادفت تربة خصبة كريمة في نفوس نجيبة مثلية مغذية . تتوافر فيها عناصر المثل العليا للانسانية الكاملة الشاملة : كما تؤمل في « العالم السوبرماني » ان يكون : —

فلسوف اذن تمحي اعتبارات المسافة بالتلفزة واستخدام الطاقة الذرية . ولسوف تتآزر الثقافات وتتضافر اساليب الاداء الفكري . ولسوف يفيض الانتاج العقلي موارد الارزاق تترى : ولسوف تنمحي شروح الفروق بين الطبقات والجماعات . بحيث تتنحى الوطنية المحدودة الضيقة ، عن الانسانية المجردة المطلقة . ولسوف ينظم تجاوب النشاط بين افراد النوع وفق [illegible] من زيادة السعير وسيادة التدبير . فلكل من نفسه اذن وازع من الغيرة . ولكل من نفسه اذن دافع الى الخيرية . ترفرف فوق الجميع اجنحة خفية. لروح ملائكية موحية . تمجد الخير والحق والكمال والاخاء . ثم تهتف عالياً بمدى يشق عنان السماء . « عاش السوبرمان على مدى الزمان . خليفة الله في الارض وآيته في الاكوان » !

ابراهيم مسلم
مدرس بالعباسية الابتدائية الاميرية